

مؤتمر الفكر الإباضي الثالث

جامعة نابولي - إيطاليا

28 - 30 مايو 2012 م

■ محمد بن سعيد الحجري

في ستينيات القرن العشرين المنصرم **ف** أطلق الشيخ علي يحيى معمر - وهو أحد علماء الإباضية في ليبيا - في كتابه: الإباضية بين الفِرَق الإسلامية منهجاً اعتبره قاعدةً للتقارب والتفاهم، وهي تقوم على أركان ثلاثة: المعرفة، والتعارف، والاعتراف؛ ومع أن هذه القاعدة تستهدف دعم التقارب والتفاهم والتعايش بين المدارس الفقهية والمذاهب الإسلامية المتعددة؛ فإن توظيفها ضروري لتكون بناءة داخل الدائرة الإسلامية أو حتى خارج تلك الدائرة، مع العالم الذي يزداد تداخله إلى حد الاندماج يوماً بعد آخر. إذ إن البناء ينبغي أن يكون دائماً على التواصل القائم على المعرفة، فهي التي تعطي الفرصة للفهم أو التفهم والتفاهم،

■ كاتب وباحث من سلطنة عُمان.



وعلى هذه القاعدة المرتكزة على المعرفة العلمية، وعلى الوعي بما لدى كل طرف من إسهام حضاري ومنجز معرفي، أو الوعي بتصوير كل جانب عن الجانب الآخر، من أجل أن يقوم هذا التصور على التواصل وليس على القطيعة، وعلى المعرفة وليس على الجهل، وعلى الوضوح وليس على الحجب، وعلى الدقة وليس على التخمين، وعلى حديث الذات من المصادر العلمية الأصيلة، وليس على حديث الآخر عنها عبر المصادر الوسيطة، وعلى المنهج العلمي وليس على تركيب الصور التعميمية المغلوطة، وعلى الإنصاف للذات وللآخر، وليس على الاستئثار بالتصور المثالي عن الذات وغمط الآخر، على ذلك كله تأتي سلسلة مؤتمرات الفكر الإباضي؛ لتجلي - بروح البحث العلمي - صورة مدرسة عريقة من المدارس الفكرية الإسلامية العقديّة الكلامية والفقهية، ولترسي بذلك أسس تقليد علمي يفيد من الأدوات التحليلية المتطورة التي وصل إليها الدرس في العلوم الإنسانية، في الجامعات ومراكز البحث والدراسات، ولتجعل الحوار العلمي لغة للتعارف والفهم وبناء الشراكات التي تلتزم بجهد التفاهم والتعاون من أجل مصلحة البشرية قاطبة.

وقد انعقد في جامعة نابولي بإيطاليا خلال المدة من 28 - 30 مايو (2012) مؤتمر الفكر الإباضي الثالث الذي أتى بعد مؤتمريين؛ الأول في جامعة أرسطو طاليس في اليونان، والثاني في جامعة تيوبنجن في ألمانيا. وقد أخذ هذا المؤتمر صفة دورية سنوية تجمع الباحثين المختصين بالفكر الإباضي من أطياف ودول وجامعات شتى، كما أخذ بُعداً أكثر تطوراً في تعميق الأطروحات التي يناقشها، مؤكداً غنى هذا الفكر وثراء الموضوعات التي يحملها، والتي تقدم للباحثين مادة متنوعة للنظر والدرس والنقاش، وهو ما يؤكد في الوقت ذاته البعد

العالمي لهذا الفكر، وارتكازه على مبدأ العدالة التي أسست مساحة واسعة من التعايش والتسامح، الذي يعدُّ سمة واضحة في كل التجمعات الإباضية؛ سواء تلك التي كونت دولاً، أو تلك التي بقيت جزءاً من مجتمعاتها الوطنية، تمارس أنشطتها والتزاماتها بإيجابية.

المؤتمر - الذي كان ثمرة لجهود تنسيق وتنظيم طويلة بين وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان، وجامعة نابولي - انعقد في إحدى قاعات الجامعة العريقة التي تقع على ساحل خليج نابولي الجميل، حيث بدأ بجلسة افتتاحية صباح يوم 28 مايو حضرها معالي الشيخ عبد الله بن محمد السالمي وزير الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان، كما حضرها عدد من الشخصيات العلمية الهامة من جامعة نابولي الذين تداولوا عدداً من الكلمات؛ حيث ألقى ليذا فيجانوني - رئيس جامعة نابولي - كلمة ترحيبية، كما ألقى كذلك روبرتو توتولي - عميد قسم (DAAM) - كلمة أخرى، وألقيت كلمة ثالثة من قبل أجوستينو كلرادو - عميد كلية الدراسات العربية والإسلامية والبحر الأبيض المتوسط بالجامعة - وسيرا لويجي - مدير مركز الدراسات البربرية - كما ألقى الدكتور عبد الرحمن السالمي - رئيس تحرير مجلة التفاهم - كلمة عن الجانب العُماني، لتبدأ بعد هذه الجلسة الترحيبية وقائع المؤتمر التي امتدت طوال الأيام الثلاثة، تخللتها مساحات واسعة للنقاش المعمق حول القضايا المطروحة، وكذلك للحوارات الجانبية ولقاءات التعارف التي تشكل رافداً إضافياً لإنضاج الأفكار وتعميق الرؤى.

وقد ارتكز المؤتمر في هذا العام على علم الكلام والإلهيات تحت عنوان IBADI THEOLOGY (Rereading Sources and Scholarly Works) هادفاً إلى إعادة قراءة المصادر والدراسات الأكاديمية حول الإباضية، مقدماً دراسات وتحليلات عميقة عكفت على توضيح الجذور العقدية والآراء



الكلامية التي شكلت التصور الإلهي للإباضية، مما سيعطي إمكانية أكبر لفهم طريقة تعاطيهم مع قضايا مجتمعاتهم، وكيفية تعاملهم مع المجتمعات المختلفة معهم أيضاً، خاصة إذا ما استحضرننا ارتباط ذلك بالبعد الحضاري لهذه الآراء العقديّة.

وقد هدف هذا المؤتمر إلى استكشاف مختلف قضايا علم الكلام عند الإباضية منذ البدايات وحتى يومنا الحاضر، مركزاً بشكل أساسي على الفترة التكوينية المبكرة؛ إذ لا تزال مثل هذه القضايا الكلامية الرئيسة سبباً في إساءة فهم الإباضية، وبذا فإن المؤتمر هدف أيضاً إلى معالجة هذه الفجوة من خلال وضع هذه الآراء الكلامية على مائدة النقاش لدى طيف واسع من المتخصصين والمهتمين.

ومن اللافت للنظر أن هذا المؤتمر قد انعقد في جامعة نابولي حيث تأسس مسار بحث عريق في «الشرقيات» منذ بداية القرن الماضي، حين اجتذبت الآراء الكلامية عدداً من الباحثين والعلماء الإيطاليين؛ حيث افتتحت أعمال كارلو ألفونسو نالينو، ولورا فاتشيا فالجيليري، ومارتينو ماريو مورينو، وروبرتو ريبوناتشي الطريق لفهم أفضل للإباضية، ولا تزال الدراسات الإباضية تجتذب اهتمام عدد من الباحثين الإيطاليين، من بينهم بعض ممن شاركوا في هذا المؤتمر؛ إذ لا يزال الفكر الإباضي يستحق اهتماماً أكثر.

ويمثل تاريخ الإباضية في القرون الإسلامية الستة الأولى أمراً ضرورياً لفهم تطور الآراء الكلامية والمذهب الفقهي للإباضية، فالافتراق الذي كان سياسياً في البدايات الأولى تطور ليكون خطأً سياسياً وعقدياً وفقهياً واضحاً لدى المدرسة الإباضية وأتباعها يمتد من البصرة حيث نشأ المذهب، وليجمع أتباع هذه المدرسة في المشرق

والمغرب الإسلامي، والذي تعزز بمزيد من الاتصال الفكري سمح بتطوير الأفكار وتعميق النقاش.

وقد ضم هذا المؤتمر عدداً من ألع الأسماء الاستشراقية وأكثرها تأثيراً، وأوسعها معرفة بالشأن الإباضي وبالتاريخ العُماني، ومن بينهم المستشرق الألماني البروفسور وليفريد مادلونج، والمستشرق البريطاني

**إنّ الدراسات الإباضية
قد استقطبت طيفاً واسعاً
من الدارسين والمهتمين
من مشارب وثقافات
مختلفة، مما يسمح
للتنوع المنهجي بالنظر
إلى القضايا المطروحة
من زوايا علمية متعددة**

البروفيسور جون وليكنسون، والمستشرق الألماني البروفيسور جوزيف فان إس، كما جاء هذا المؤتمر بمشاركة أسماء علمية عربية مهمة من الباحثين العرب من بينهم الدكتور رضوان السيد من لبنان، والدكتور فرحات الجعبيري من تونس، وعدد كبير من الباحثين والمهتمين من سلطنة عُمان وتونس والجزائر وإيطاليا وألمانيا وأوكرانيا وفرنسا وكندا

ولبنان واليابان وبريطانيا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما يؤكد أن الدراسات الإباضية قد استقطبت طيفاً واسعاً من الدارسين والمهتمين من مشارب وثقافات مختلفة، مما يسمح بالتنوع المنهجي بالنظر إلى القضايا المطروحة من زوايا علمية متعددة.

المتحدثون الرئيسيون

المؤتمر الذي قدم 26 ورقة علمية من خلال ست جلسات موسعة - إضافة إلى جلسيتين موسعتين للافتتاح وللختام والخلاصات - قدّم أيضاً على امتداد ثلاثة أيام أربعة متحدثين رئيسيين هم البروفيسور وليفريد مادلونج من جامعة أكسفورد، بالمملكة المتحدة؛ حيث تحدث عن «الإباضية والمعتزلة في الإسلام المبكر»، وقد قدّم محاضرتة



في اليوم الأول من وقائع المؤتمر، وفي اليوم الثاني قدم البروفيسور جوزيف فان إس من جامعة توينغن بألمانيا محاضرتة؛ حيث تحدث عن «الهوية الإباضية والسياسة الإمبراطورية في العصر العباسي المبكر»، كما ألقى البروفيسور رضوان السيد من الجامعة اللبنانية محاضرتة التي تحدث فيها عن «الإباضية في زمنها الأول من منظور مقارن»، أما في اليوم الثالث من أيام المؤتمر فقد تحدث البروفيسور جون وليكنسون من جامعة أكسفورد بالمملكة المتحدة في محاضرتة عن «فكر الاعتدال والتطرف في المرحلة الإباضية المبكرة».

الجلسات والمحاور الرئيسية

وقد تمحورت جلسات اليوم الأول حول «قراءة وإعادة قراءة المصادر الإباضية»؛ حيث تحدث في الجلسة الأولى التي أعقبت الافتتاح ومحاضرة المتحدث الرئيس كل من: صالح البوسعيدي من سلطنة عُمان، وشربل أليت من فرنسا، وعلاوة عمارة من الجزائر. كما تحدث في الجلسة الثانية عدد من الباحثين وهم: البرفيسورة أرسيليا فرانثسكا من جامعة نابولي بإيطاليا، وهيدرون أيجنر من ألمانيا، ودانيال رودفلوف من أوكرانيا، وأنا دي تولا من إيطاليا، وليونارد تشيرلي من الولايات المتحدة الأمريكية.

كما تمحورت جلسات اليوم الثاني حول «الخطاب الكلامي عند الإباضية»؛ حيث تحدث في الجلسة الثالثة كارميلا بافيوني من جامعة نابولي بإيطاليا، وعبد الرحمن السالمي من سلطنة عُمان، ومصطفى بن دريسو من الجزائر، ومعز دريدي من فرنسا.

أما الجلسة الرابعة فقد تحدث فيها محمد حسان من تونس، ويوهي كوندو من اليابان، وليونارد دوجلاس من الولايات المتحدة الأمريكية وبينساماريا أموريتي من إيطاليا.

وارتكزت جلسات اليوم الثالث على «علم الكلام الإباضي المعاصر»؛ حيث تحدثت في الجلسة الخامسة فاليري هوفمان وأناي هجينز من الولايات المتحدة الأمريكية، وأمل غزال من كندا.

وفي الجلسة السادسة تحدث أجوستين جومير من فرنسا، ومصطفى أونتين من الجزائر، وفريد بوشيا من فرنسا، وأنا ريتا كابويلا من إيطاليا.

إن المتأمل فيما قُدم من أبحاث وقراءات سيلفت نظره ذلك التعرف الدقيق على المصادر الإباضية المشرقية والمغربية الأصلية، وهو ما يعطي الفرصة لوعي أعمق وأدق بعيداً عن الصور المصطنعة. كما أن الأوراق التي قرأت المنتج الإباضي في سياق مقارن بينها وبين المدارس الإسلامية الأخرى - كالمعتزلة والأشاعرة والماتريدية - أو بينها وبين نزعات إصلاحية خارج السياق الإسلامي؛ أعطت فرصة مهمة لدراسة تطور الأفكار، كما أن ذلك يرسى أسس تقاليد حوار علمي يحثي بالمنهج العلمي في فحص الآراء ودراسة تطورها.

وقد اعتنت عديد من الدراسات التي قدمت بأراء بعض أعلام الفكر الإباضي كالمتكلم والمؤرخ والفقهاء العُماني الشيخ نور الدين السالمي، والفقهاء والمفسر الجزائري الشيخ محمد بن يوسف أطفيش من المرحلة المتأخرة، إضافة إلى مؤلفين آخرين كتبغورين بن عيسى الملتشوطي، ولواب بن سلام المزاتي، وخالد بن قحطان من المؤلفين المتقدمين؛ حيث قام الباحثون بتتبع أفكار الكلام الإباضي عبر مؤلفاتهم في القديم والحديث.

ويلاحظ من أعمال المؤتمر في محاورها المختلفة أنها عالجت تلك المحاور من منطلقين رئيسيين هما: دراسة بعض المفاهيم الكبرى في



آراء الإباضية الكلامية، ودراسات حول المؤلفات والنصوص الإباضية المتقدمة والمتأخرة، كما استند العديد منها على منهجية التحليل المقارن، إلى جانب إضافات مهمة خارج هذين المنطلقين قدمتها بعض الأوراق الأخرى.

دراسات حول المفاهيم الأساسية

ارتكز عدد كبير من الدراسات المقدمة على مناقشة بعض الأفكار الأساسية والمفاهيم الأساسية في علم الكلام الإباضي، التي حظيت بكثير من الدراسة والنقاش سواء في الأوراق العلمية التي قدمت، أو النقاشات التي أعقبت كل جلسة؛ ومن بين هذه الأفكار: مفهوم «السنة» و«الأخبار» في المصادر الإباضية القديمة التي درسها في ورقته الباحث العُماني صالح البوسعيدي، ومسألة «خلق القرآن» التي قدّم الباحث العُماني عبد الرحمن السالمي تتبعاً لتطورها في الفكر الإباضي المشرقي والمغربي، ومصطلحات ومفاهيم «الولاية والبراءة والوقوف» التي قدّم قراءة عنها الباحث الياباني يوهي كوندو، ومفهوم «الجهاد» عند الإباضية الذي درسته الباحثة الإيطالية بينسا ماريا أموري، ومفهوم «الرق والتحرير» عند الإباضية، الذي قدّم قراءة له الباحث الجزائري عدون ياسين، ومفهوم «الكبيرة ومصير العاصي» الذي بحثه في ورقته الباحث الجزائري مصطفى بن إدريسو، ومفهوم «التكليف» الذي درسه من وجهة نظرٍ مقارنة الباحث الفرنسي معز دريدي.

دراسات حول الأعمال والنصوص

كما دُرست بمنظور مقارن عدد من المؤلفات الإباضية في العقيدة وعلم الكلام من بينها كتاب أصول الدين المشهور بـ«عقيدة

تبعورين» لتبعورين بن عيسى الملشوطي الذي قدمت الباحثة الألمانية هيدرلين أيجنر دراسة لأهم قضايا وموضوعاته من منظور مقارن مع بعض المدارس الإسلامية الأخرى في ورقتها حول «مفاهيم كلامية في المصادر الإباضية المبكرة»، كما قدمت الباحثة الفرنسية شيرلي أليت دراسة لكتاب ابن سلام (لؤاب بن سلام المراتي) المعنون بكتاب بدء الإسلام وشرائع الدين، بينما قدم الباحث الأوكراني دانيال رودفلوف إعادة قراءة في السير الإباضية مركزاً الحديث على سيرة خالد بن قحطان.

وعلى حين اعتنت ورقة البروفيسورة أرسيليا فرانثسكا من جامعة نابولي بدراسة تاريخ الدراسات حول الإباضية في نابولي في ورقتها بعنوان: «دراسات الإباضية في نابولي. إعادة قراءة أعمال علماء القرن الماضي الإيطالية»؛ نجد أن عدداً من الأوراق والدراسات في المؤتمر اعتنت بالنصوص والدراسات الإباضية الحديثة والمعاصرة؛ حيث قدمت البروفيسورة فاليري هوفمان من الولايات المتحدة ورقة حول «علم الكلام عند الإباضية في العصر الحديث»، بينما قدمت الباحثة الأمريكية أني هيغينز ورقة أخرى عن: القيم الإباضية بين القديم والحديث، مستعرضة نصاً شعرياً إباضياً قديماً؛ كما قدمت الباحثة الكندية أمل غزال ورقة عن: «السياسة والجدل، الإباضية وعلم الكلام في شمال أفريقيا في الفترة الحديثة»، كما قدم الباحث الجزائري مصطفى أوينتين والباحث الفرنسي فريد بوشيبه ورقتين حول آراء وإسهامات الفقيه والمفسر الشيخ محمد بن يوسف أطفيش في تطوير الفكر الكلامي الإباضي، كما قدمت الباحثة الإيطالية أنا ريتا كويولا ورقة حول الآراء الكلامية للفقيه والمؤرخ والمتكلم العُماني نور الدين السالمي في كتابه «مشارك أنوار العقول».



ومن جهة أخرى فإن بعض الأوراق المقدمة سلطت الضوء على تطور الآراء الكلامية في الفكر الإباضي المغربي؛ حيث قدّم الباحث التونسي محمد حسن ورقة حول الفروق في الآراء الكلامية بين الإباضية الوهبية وسائر الفرق الإباضية الأخرى، كما قدّمت الباحثة الإيطالية أنا ماريا دي تولا ورقة حول الترجمات البربرية لبعض كتب العقيدة الإباضية.

إضافة إلى ذلك فإن بعض الأوراق قدّمت معلومات مثيرة حول الوجود التاريخي الإباضي في جزيرة صقلية الإيطالية التي قدّمها الباحث الإيطالي ليونارد تشياريلي، كما قدّم الباحث الأمريكي دوغلاس ليونارد ورقة بحثية قارن فيها بين نظرة الإباضية إلى «التجسيم» ورفضهم له، مقارنة مع كتابات المصلح المسيحي البروتستنتي جون كالفن.

جلسة الختام والخلاصات

وفي ختام المؤتمر انعقدت مساء يوم 30 مايو جلسة ختامية موسعة تحت عنوان «الدراسات الإباضية الماضي والحاضر والمستقبل المنظور»؛ لتدارس الخلاصات والنتائج التي أبانها المؤتمر، وقد تحدث فيها كل من البروفيسور هانز غاوبه من جامعة توبنجن في ألمانيا، والبروفيسور ولفريد مادلونج، والبروفيسور جوزف فان إس، والبروفيسور جون ولكينسون، والدكتورة هيدرون أيخنر، والدكتور سيريل ألييت والبروفيسورة أرسيليا فرانشسكا، حيث ركزت هذه الجلسة على خلاصات المؤتمر والنتائج التي حققها، والمقترحات التي يمكن تفعيلها لمزيد من تطوير الدراسات الإباضية في المستقبل المنظور، كما تخللتها كلمات الشكر والثناء على فريق العمل القائم على التنظيم في جامعة نابولي، كما تحدث عدد من المشاركين في المؤتمر عن رؤاهم ومقترحاتهم،

وعبروا عن شكرهم للقاء على المؤتمر والفرصة المعرفية والإنسانية التي أتاحتها هذا اللقاء على مائدة الدراسات الإباضية.

الساعة لا تعمل إلا بكل تروسها

إن هذا الاهتمام الواسع بفكر الإباضية - باعتباره جزءاً من الطيف المتنوع للمدارس الإسلامية - يوجب علينا الالتفات للبعد الإنساني العالمي لهذا الفكر، فهو أحد التجليات المهمة للرؤية الإسلامية للحياة الدينية والسياسية والفكرية والاجتماعية، وهو إلى جانب إغناؤه للدائرة الإسلامية العامة بتجربة مديدة اتصلت فيها الرؤى والتنظيرات بالممارسة العملية، مما مكن من اختبار تلك الرؤى خلال امتداد تاريخي يزيد عن 1300 عام، إلى جانب ذلك كله فإنه يغني الفكر الإنساني بنتاجه الفكري الكلامي العقدي والفقهي والروحي والأخلاقي، خاصة لتمحور منظومته الفكرية العملية على مبدأ العدالة والحقوق، ومن هنا فإن واحداً من أهم الأسئلة التي طرحها المؤتمر بشكل ضمني هو: ما سر بقاء الإباضية رغم كل التحديات والأزمات التي مرَّ بها تاريخهم في المشرق والمغرب؟ وعلى حين يسوق رضوان السيد في ورقته عدداً من العوامل التي سمحت بذلك من أهمها: وجود المذهب الفقهي، ووجود الدولة، ووجود المذهب الكلامي، ويرى أن صرامة المبادئ العقدية عند الإباضية كانت عاملاً حاسماً في ذلك، نجد في الوقت نفسه أن جون ويلكنسون يؤكد في مداخلته في المؤتمر على أن برامج إباضية سمحت لهم بالتكيف مع الظروف السياسية المختلفة والمتقلبة، وكانت سبباً في بقاء هذا المذهب. ومن المهم هنا التأكيد على أنه من الطبيعي - نتيجة لاتصال الأفكار بالواقع وتعقيدها وظروفه المتغيرة - أن تكون الرؤى والتنظيرات أكثر نضجاً، وأقدر على التعاطي مع المتغيرات



من حولها وعلى المعالجة الإيجابية لآثارها، وعلى الاحتفاظ في الوقت نفسه بمقومات الهوية والتميز والوعي بأبعادها دون تعصب أو تزمت أو انغلاق؛ كما أن تمحور الممارسة العملية واستقلال النهج السياسي عند الإباضية المنبني على البحث الدائب عن قيمة العدل تثبت قيمة التعايش والتسامح، ويمكن لها أن تزدهر في تجمعات الإباضية، وهو طرح أصلته الندوة حين أكدت على لسان معالي الشيخ عبد الله بن محمد السالمي وزير الأوقاف والشؤون الدينية على أن الساعة لا تعمل إلا بكل تروسها، سواء منها ما كان صغيراً أو كبيراً، فالتجربة الحضارية والإنتاج المعرفي والعمق الأخلاقي والتاريخي هو الذي يحدد القدرة على صناعة الأثر والإضافة الخلاقة للحياة بغض النظر عن أي معايير أخرى.